وفد بنى أسد

قضى امرؤ القيس ليلته ساهدًا لا يواتيه النوم، ومرت فى خياله ذكريات ما مضى من أيامه، كأنما هى حلم متصل. مرت به ذكريات أبيه، وما لقى من حبه تارة، ومن عنفه تارة أخرى، ومرت به ذكريات يوم دارة جلجل، وفاطمة، فاطمة التى أحبها من أعماق قلبه، وكان يحلم أن تكون امرأته، لولا أن قضت الأقدار أن تقف بينه وبينها، فنزعتها من آماله نزعًا لم تكن له فيه حيلة، وأحس عندما طاف به خيالها أن قلبه لا يزال يدمى من جرحه الذى تقادم عليه العهد؛ لقد استحدث بعدها زوجة بعد زوجة، فما وجد فى إحداهن من تملأ قلبه؛ واتخذ من بعدها خليلة بعد خليلة، فكان لا يلبث أن يهجرهن جميعًا، بعد أن يخيب فيهن أمله، ويخيب فيه أملهن؛ وكانت صورتها دائمًا ماثلة فى قلبه، لا تتحول مهما حاول أن ينزعها؛ وكلما تعلق بامرأة حسب أنها تلهيه عن فاطمة، فلا يجد فيها ما يغنيه عن الصورة التى أقامت فى خياله لا تفارقه. وكان النساء يعجبن به، ويقبلن عليه؛ فهو فتى الفتيان حسنًا وقوة، وهو الفارس الكامل، والشاعر الصداح، الذى يملأ المجالس أنسًا وبهجة، وهو الأمير المهذب اللفظ الصافى النفس؛ ولكنهن كن لا يلبثن أن يجدنه منصرفًا عنهن عازفًا فاترًا،

لا يعبأ بهن، بل يناجي خياله، حيث تقيم فاطمة؛ فكانت حياته مع النساء سلسلة من الأمل والخيبة، ثم مرت به ذكريات تشريده مع أصحابه من الصعاليك والمجان، وصيده ولهوه وشربه، وإنشاده الأشعار عند آثار الديار معهم.

مرت به ذكريات حياته يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام! حتى لقى فاطمة أخيرًا، فهزت قلبه فى ذلك اللقاء القصير، فجعلته يكره الحياة، ويمج اللهو، ويقبل إلى اليمن يلتمس البعد والعزلة؛ فإذا بالرسول يأتى إليه حاملا نعى أبيه حجر فلم يكن له بد من العودة إلى الحياة المضطربة، لكى يطلب الثأر المقدس. وأحس عند ذلك بشىء من الأمل الجديد، فلعله يجد فى صخب الحروب ما يملأ قلبه ويشغل أحلامه، وينجيه من عذاب نفسه.

قضى ليلته يناجى هذه الأخيلة المتعاقبة، حتى لاحت خيوط الفجر من الشرق، ونهضت قطعان من السحب تنساق فى أطرافها، ثم أضاء الأفق شيئًا بعد شىء، حتى اكتست السحب حمرة كلون اللهب، ثم صفرة كلون الذهب، ثم توهج الفضاء بشعاع الشمس الرائعة، ودبت فى الكون الحياة؛ فقام امرؤ القيس فاترًا بعد تلك الليلة الساهدة، وسار متجهًا إلى الخيمة التى كان نازلا فيها، فوجده قد سبقه إلى الفضاء والعبيد من حوله ينقلون الأحمال المكدسة التى جاء بها من متاع الملك حجر، وقد ألقيت فى الليلة السابقة على عجل فى جنبات الوادى.

ولما رآه امرؤ القيس ناداه، فأسرع إليه، وسارا معًا يتحدثان في الفضاء، وقد بعثت الحركة شيئًا من النشاط في امرئ القيس، وجرى الحديث فتذاكرا أحداث بني أسد وسواها من قبائل العرب، وتحدثا عما كان في فارس من فتكات الملك العظيم كسرى أنو شروان بأعدائه أصحاب الزنديق مزدك؛ ثم بلغ بهما الحديث إلى ذكر المنذر بن ماء السماء اللخمي، الذي عاد إلى الحيرة بعد مقتل الملك الحارث بن عمرو، فقال عامر حزينًا: «لقد أصبح اليوم سيد بني أسد، يتمسح شيوخهم عند أبوابه، ويمدحه شاعرهم».

فقال امرؤ القيس في حقد وغيظ: «ذلك العبد الجبان، ابن الأبرص، ويل له».

فقال عامر: «إنه اليوم يلعق شاربيه، ويمسح عُثنونه مرتاحًا. ليت حجرًا قتله واكتفى من مؤونة القوم بذلك».

فقال امرؤ القيس في حقد: «انتظرني ريثما أظفر به».

فأطرق عامر لحظة، وأخذ في يده عودًا من الشيح، جعل يفركه بأصبعه، وقال كأنه يخاطب نفسه: «إنه اليوم مدل بحماية سيده الجديد».

فقال عامر: «سيكفيك المنذر مؤونته. لن يصبر المنذر طويلا على لؤمه وخبثه».

وتردد قليلا ثم قال: «وقد رأيت بالأمس في حلمي أن المنذر قاتله».

فلم يملك امرؤ القيس أن ضحك معابثًا وقال: «لقد أصبحت كاهنًا يا عامر، يأتيك الأقيصر ومناة فى أحلامك!».

وكانا قد عادا عند ذلك فى سيرهما إلى خيمة امرئ القيس فدخلاها، ورأى امرؤ القيس فى جانبها حزمة عظيمة من الدروع حملت إلى هناك، فتقدم منها ومد يده إليها، فأخرج منها درعًا وجعل يتأملها؛ ثم نهض وبسطها وجعل يقيسها على جسمه ليرى هل تلائمه. ثم نظر باسمًا إلى عامر وقال: «أنا ابن حجر، وحق الأقيصر. ولكن مالى وللأقيصر! ما هو إلا اسم تعوده اللسان».

فنظر إليه عامر وقال جادًّا: «لا تغضب الآلهة يا بن أخى».

فقال امرؤ القيس فى استخفاف: «لقد طال تَطوافى فى البلاد فما عثرت على آية لها»، ثم عاد يقلب فى حزمة من السلاح، حتى رأى سيفًا أعجبه فأخذه وجعل ينظر فى قبضته متأملا، وسأل عامرًا: «هذا يمانىٌّ؟».

فنظر إليه عامر وقال فى خشوع: «هو سيف حجر».

فاكتسى وجه امرئ القيس رقة، وجعل يقلب السيف فى يده فى لهفة ظاهرة وينظر إليه فاحصًا، وسلَّه من قرابه، وأخذ ينظر فى حدِّه ويتأمل بَريقه، ثم أغمده وقال وهو يتنفس نفسًا عميقًا: «لأقتلن به ابن الأبرص إذا ما ظفرت به».

ثم نظر إلى عامر وقال بصوت أجش أودع فيه حقده: «لأمثلن ببنى أسد حتى لا أبقى منهم شريفًا».

فقال عامر وقد أعداه غيظ امرئ القيس: «أتحسب ابن الأبرص يقف مع بنى الأسد فى حربك...».

فالتفت إليه امرؤ القيس مسرعًا وقال: أيبلغ به الجبن؟...».

فأتم عامر قوله: «سيكون فى قصر المنذر. يقذف أشعاره وهو مختف وراء سيده».

فحرك امرؤ القيس السيف الذى كان فى يده حتى ضرب به حزمة كانت بجواره ضربة عنيفة وقال: «سأدركه ولو تعلق بالنجوم. سأشفى نفسى منه وشيكًا».

ثم نظر إلى عامر وقال له: «جهز نفسك فما بى صبر على البقاء». وانتظر أن يجيبه صاحبه على قوله. ولكن عامرًا أطرق متحاشيًا النظر إليه، فاقترب امرؤ القيس منه وقال: «أراك تريد أن تقول لى حديثًا لم تفض إلىّ به بعد».

فتردد عامر قليلًا ثم قال بصوت خفيض متقطع: «أحب أن نتأنى فى حربنا حتى نتم الاستعداد لها».

فقال امرؤ القيس ضجرًا: «وهل تخشى حرب هؤلاء؟».

فقال عامر: «إنك لن تحارب هؤلاء وحدهم».

فقال امرؤ القيس: «سنجد معنا كندة وحمير».

فصمت عامر لحظة ثم قال: «الشُقة بعيدة. وأولى لنا لو انتصرنا بتغلب وبكر».

فقال امرؤ القيس مندفعًا: «ألا تسير كندة وحمْير معنا؟».

فقال عامر مبادرًا: «بل أظنهما تسيران معنا. ولكنا لن نستطيع أن نحارب عدونا بهؤلاء وحدهم».

فقال امرؤ القيس باسمًا: «أليس معنا من المال ما يحمل قبائل ربيعة كلها على الحرب معنا؟ ليس بنو أسد أكفاء لحرب قبائل اليمن وربيعة».

فقال عامر بصوت يكاد همسًا: «وهل نسيت المنذر؟ وهل نسيت كسرى؟».

فانتفض امرؤ القيس وقال فى دفعة: «كسرى؟ وهل يحاربنا كسرى؟».

فهز عامر رأسه بهدوء وقال: «وهل يحاربنا غير كسرى؟ إن المنذر نفسه لا يستطيع شيئًا بغير معونته. وهل طرد جدك الحارث إلا كسرى؟ وهل قتله إلا اضطهاد كسرى؟».

فأطرق امرؤ القيس لحظة وهو صامت واستمر عامر يقول: «لقد تحركت القبائل على أبيك وأعمالك فى كل مكان منذ ولى الملك كسرى، ومنذ ذلك الوقت وقع فيهم القتل والتشريد فى كل جهة يقيمون بها، وأصبح المنذر سيد العرب وأساورة كسرى من ورائه يشدون أزره فى كل موطن».

فسكت امرؤ القيس على الرد وجلس مستندًا إلى كومة من متاع أبيه، وذهب فى أفكاره يقلبها ويديرها على وجوهها، وجلس عامر إلى ناحية أخرى، ومال إلى حزمة من المتاع مستندًا بظهره

عليها؛ وعند ذلك أقبل أحد العبيد الذين كانوا مع الخيل والإبل فى ناحيـة من الوادى فوقف عند باب الخيمة وقال فى خضوع يخاطب امرأ القيس: «أبيـتَ اللعن! هؤلاء ضيوف نزلوا عند طرف الوادى يريدون لقاءك».

فنهض امرؤ القيس ذاهبًا نحوهم وهو يقول: «ومن يكونون؟».

فقال العبد: «لم أعـرف فيهم غير المهاجر بن خداش وقبيصة ابن نعيـم». فتراجع امـرؤ القيس إلى الوراء حتـى اصطدم بعامر وهـو واقف خلفه. ثـم التفت إلى صاحبه فقـال بحقد: «المهاجر ابن خداش! ابن عم ذلك الشاعر الدنىء».

فقـال عامـر كأنه لم يسـمع قول امـرئ القيس: «هـم إذًا وفد بنى أسد».

فأسـرع امرؤ القيس بحركة آلية وأمسـك بسيف أبيه الذى كان قد وضعه إلى جانب من الخيمة، ثم صاح بالعبد: «عد إليهم سريعًا، وقل لهم يعودوا من حيث أتوا فلا منزل لهم عندى».

وهمَّ العبد بالذهاب لينفذ أمر سـيده لولا أن أمسـك عامر بقفاه فاسـتوقفه وقال له: «تنح أنت إلى المرعى، وسأذهب إليهم أنا - وإياك أن تقول لأحد لفظًا».

فسـار العبـد منكسـرًا يسـترق الخطـى واختفـى خلـف البيوت المجاورة.

ونظـر عامر إلى امرئ القيس نظرة هادئـة وهو صامت فقال له هذا: «أتريـد أن تخاطبهم؟ أتريد أن تقف دونهـم فى غير القتال وطلب الثأر؟».

فقـال عامر هادئًا: «على رسـلك يا بن أخـى. ولا أقول لك أيها الملـك الهمام؛ إن لك أن تأمرنى فأطيع منـذ أصبحت من كندة فى مكان أبيك. ولكنى أكلمك الآن كعمك الذى حلب الدهرَ أشـطرَه. لقد عرفت الناس وعركت الأيام وخبرت الأمور، فإذا شـئت فاسـتمع رأيى ولك بعد ذلك أن تأمر بما بدا لك عن روية. فما رأيت كالسرعة أدعى إلى الندم».

فخشـع امرؤ القيس أمام نظرة الرجل الهادئ، وقال وقد خفت حدته: «إنهم قد أتوا بغير شـك ليتحدثوا عن جريمتهم، ولا يليق بنا أن نتحدث إليهم إلا بالسيف».

فقـال عامر: «وهـل نعجز عن مقابلتهم بالسـيف غدًا إذا نحن حدثناهم اليوم وعرفنا ما أتوا له؟».

فوقع قول عامر موقعه فى نفس امرئ القيس، وتردد فى الجواب مليًّا ثم قال: «إذًا فافعل ما بدا لك».

ثم مضى يسير فى بطء إلى جانب الوادى فجلس على صخرة منه والسيف لا يزال فى يده.

فذهـب عامـر يسـير علـى مَهـل وراءه حتى جلـس تجاهه ثم قال: «نرسـل إليهم الآن نرحب بهم وننحر لهم ونطعمهم بعد سفرهم الطويل».

فنظـر إليه امرؤ القيـس فى فتور، وأجاب فـى صوت خافت؛ «افعل ما تشاء».

فذهـب عامر إلى البيوت وغاب فيهـا بعض الوقت. وبقى امرؤ القيـس ينكت الأرض بطرف السـيف وهو فى غمـده. وذهب فى التفكيـر إلى ما قرب منـه وما بعد. ومن عجـب أن فكره لم ينس وهـو فى اضطرابه وثورته وحيرتـه، أن يتذكر فاطمة ابنة عامر، وتمثلـت له صورتها الأخيرة وهى واقفـة أمامه فى خيمتها تنطق باسـمه ذاهلة، وترتد إلى الوراء فى دهشـة، وأحس عند ذلك رقّة فى قلبه يخالطها ألم يعصره، حتى همّ بالبكاء، لولا أن رأى عامرًا يقبل عليه بعد أن فرغ من إلقاء أمره إلى النسـاء والخدم، أن يعدوا طعامًـا للضيـوف، وأن ينظروا فى أمر راحتهـم؛ وبعد أن أمر بأن تضرب لهم الخيام حيث نزلوا وأرسـل إليهم مع أحد العبيد تحية ترحيب باسم امرئ القيس.

ولمـا عـاد عامر إلى مجلسـه، أخبر امرأ القيـس بما صنع فلم يجبه، بل نظر إليه كأنه يسـتفهم عما هـو بعد ذلك. فقال عامر: «إننـا لن نقدر علـى محاربتهم الآن كما قلت لك، فإننا هنا فى دار بعيدة، ولابد لنا من قطع الفيافى قبل أن نصل إليهم. وأمراء حمير وإن كانوا قومك، لا حاجة بهم إلى قتال بنى أسد إلا قتالاً يسيرًا إذا أنت لجأت إليهم واسـتملت قلوبهم؛ فليس دونك إلا جموع كندة، من تستطيع أن تخوض بهم الحرب».

فقاطعه امرؤ القيس قائلا: «وبكر وتغلب؟».

فقال عامر «نعم، وبكر وتغلب، وذلك يحتاج إلى زمن».

فسكت امرؤ القيس لحظة يفكر، ثم قال: «ومن لك أن بنى أسد لا يبادروننا بالحرب».

فتبسم عامر، ونظر إليه كما ينظر الرجل المجرب إلى طفل غرير، وقال وهو يحاول كتمان ابتسامته: «ليس لهم بعد إصابتهم أباك من باعث على حربك. إنهم إنما يأتون لاستلال حقدك، واستصلاح ما بينك وبينهم».

فصاح امرؤ القيس: «استصلاح ما بينى وبينهم؟ كأنك تريد أن تصافيهم!».

فقال عامر هادئًا: «لست أريد مصافاتهم، ولكنى أنظر فى مصلحتك، ماذا ترى لو أنهم أتوا إليك يعرضون عليك ملك أبيك فيهم؟ أتكون....».

ولم يتم قوله لأن امرأ القيس وثب فى غضب وقال: «يا لَسُبَّة الأبد! أيذهب دم حجر هدرًا؟».

فسكت عامر لحظة، ولم يرد أن يعارض الشاب المفجوع بأبيه فى وقت ثورة نفسه. ثم قال بعطف وقد وقف واضعًا يده على كتف صاحبه: «لن يذهب دم حجر هدرًا، إنهم بغيرشك لا يطلبون ذلك. وأكبر ظنى أنهم يعرضون أحد أشرافهم تقتله فى ثأر أبيك».

فعاد امرؤ القيس إلى ثورته وقال: «لكأنى بك يا عامر تشفق من الحرب وتخشى وطأتها».

فأمسك عامر لحظة عن الجواب، وقد ظهر الألم فى وجهه من قول الفتى، ولكنه ملك نفسه وقال مجيبًا فى شىء من الحدة: «لقد علمت أنى لا أخشى وطأة الحرب، ولكنى أشير عليك بما أرى فيه خيرًا لك. إن كندة كانت تحكم بنى أسد بجاه جدك الملك الحارث وسطوة الملك قباذ من ورائه فإذا رضى اليوم بنو أسد بإعادة الملك كان ذلك عن رغبة فيك، وندم على ما فرط منهم فلا تدعهم يبعدون عنك يائسين منك، وينضوون إلى الأبد تحت راية عدوك وعدو أبيك...».

فأطرق امرؤ القيس مدة طويلة، وعاد فجلس على الصخرة التى كان عليها وهو ينكت الأرض بطرف سيفه مفكرًا.

وكف عامر عن حديثه بعد ذلك، إذ رأى أثر قوله، فذهب إلى الخيمة، وجعل يفك المتاع حزمة بعد حزمة، ويرتب ما يخرجه منها فى أكوام واضعًا كل نوع مما فيها على حدة من السلاح والعدة والتحف. ودخل عليه امرؤ القيس وهو فى عمله، فجعل يساعده وهو لا يتكلم، إلى أن انتصف النهار، وسمعت ضجة العبيد وهم يحملون الطعام نحو خيام الضيوف، فقال عامر «سأذهب إلى القوم».

فنظر إليه امرؤ القيس ولم يجبه. فاستمر عامر قائلا: «ما ينبغى لنا أن نبعث إليهم الطعام مع العبيد، فلا يلقاهم منا أحد».

ولم ينتظر ردًّا على قوله، فخرج وسار نحو خيام وفد بنى أسد، والعبيد يسيرون فى أثره يحملون الصحاف مملوءة باللحم والثريد، والقعاب مملوءة باللبن والسمن والعسل، والقرب مملوءة بالماء.

* * *